نعم الله تعالى

أسماء رمضان

الحمد لله رب العالمين.. حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده.. نحمدك اللهم حمداً كثيراً طيباً مباركاً على جميع نعمك التي لا تعد ولا تحصى.. ونسألك اللهم من فضلك وكرمك المزيد.. والصّلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ من اجتباه الله تعالى رسولاً ونعمةً تفضل بها على العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

إن ما أنعم الله تعالى على الإنسان من إكرام أجلّ من أن يحصى، ومهما قمنا بإحصاء نعمه تعالى فلن نكون إلا كمن يحصي ذرات الماء في البحر الواسع: **﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [النحل:18].. وكلما تقدّمت العلوم، وازداد الإنسان بحثاً، اكتشف من عناية الله به وبما أحاطه من نواميس كونية سخرها لخدمته وتأمين سلامته؛ وهذا دين العقلاء والعلماء في البحث تأسياً بسيد العقلاء والعلماء رسول الله ﷺ حيث يقول في حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه يقول: (**أمرني ربي بتسع...ومنها: وأن يكون صمتي فكراً.. ونطقي ذكراً.. ونظري عبرة..**)

ولذا سوف نتحدث قليلاً عن بعض نعم الله تعالى مفكرين بآلاء الله.. معترفين بفضل الله علينا.. شاكرين حامدين هذا الفضل وهذه النعم...

– فإن كل خير ولذة وكل ما يوصل إلى سعادة الآخرة يسمى (نعمة).. إذ أن أمورنا كلها منها ما هو نافع ومنها ما هو ضار..؛ فالنافع منها في الدنيا والآخرة هو النعمة تحقيقاً.. وأما النافع في الحال والضار في المال فهو بلاء محض عند ذوي الأبصار وتظنُّه الجهال نعمة، وأما الضار في الحال والنافع في المال فهو نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال..

– أما ما أكرمنا الله تعالى به من الخيرات فهي نِعمٌ تنقسم من حيث لذاتها إلى ثلاثة أقسام:

منها ما هو مؤثّر لذاته لا لغيره (هو الخير والنعمة): كلذة النظر إلى وجهه الكريم وسعادة الآخرة؛ فإنها لا تطلب لتوصل إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها..

ومنها ما يقصد لغيره كالدراهم والدنانير؛ فإنها لو كانت لا تنقضي بها حاجة لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة؛ إذ هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما..

أما من يجمعها ويكنزها من الجهال ويظن أنها مقصودة، فيشغله وجودها عن الفكر والعبادة فهما في حقه بلاءً وليسا نعمة...

ومنها ما يقصد لذاته ولغيره: كالصحة والسلامة؛ فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصِلَين إلى لقاء الله تعالى.. أو ليتوصّل بها إلى استيفاء لذّات الدنيا..

وهكذا يتبين لنا معنى قوله عليه السّلام: (**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة**).. فإن سعادة الآخرة: هي بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وعمل لا فقر بعده، وهي النعمة الحقيقة...

حتى لو نظرنا إلى نعيم الدنيا من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة أنعمها الله على عباده.. لذلك قال ﷺ: (**من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنه حيزت له الدنيا بحذافيرها**) إذ أن الوصول إلى السعادة الأخروية يكون بالوسائل و النعم الدنيوية:

– فمنها ما تكون فضائل نفسية: قال تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ ويرجع حاصل هذه الفضائل إلى الإيمان والعلم بالله تعالى.. وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق ومراعاة العدل في الكف عن الشهوات..

– ومنها ما تكون فضائل بدنيّة: كالصحّة، والقوة، والجمال، وطول العمر.. وقد قال ﷺ: (**أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى**)...

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم).

– ومنها الأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة...

– ومنها الأسباب الخارجة عن النفس كالتوفيق والهداية...

– ومن نعم الله تعالى على الإنسان أنه فضّله على غيره فقال: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء :70].

فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة؛ إذ تختص بخمس قوى: الاغتذاء، والنمو، والتولد، والحركة الحاصلة بالاختيار والحس، وأخيراً القوة المدركة لحقائق الأشياء: وهي التي تتجلى فيها نور المعرفة الله تعالى.. ويشرق فيها ضوء كبريائه..

– ولقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فمنهم من فسّر التكريم بجعل ابن آدم له أصابع: فإن كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم يأكل بيده.. ومنهم من فسّر التكريم بالنطق والتمييز.. ومنهم من فسّره: بامتداد القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية...

ومنهم من فسّره بحسن الصورة.. قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر64]ومن كرامات الآدمي أيضاً أن أتاه الله الخط؛ حيث أن الفضائل والمعارف لا يتأتّى بها إلا بواسطة الخط، ولهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق 1-5]

فالعلم جنّة حاضرة، والجهل شقاوة ليس بعدها شقاوة.. ولذا من تمام النعم التي أكرمنا الله تعالى بها أن جعل العلم أعلى المراتب.. وأنعم علينا بالعلماء الذين وهبوا أنفسهم لمريديهم يغرسون في نفوسهم الفضائل، ويدفعون عنها المكاره في سبيل الوصول بهم إلى مرتبة أولو العلم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران 18] وكفا بذلك نعمةً من الله تعالى علينا فضلنا بها على كثير ممن خلق تفضيلا...

– وكذلك من النعم التي أنعمها الله علينا نعمة المال والجاه والنسب والأهل والولد.. فإن قيل: أن الله قد ذمّ نعمة المال والجاه.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن15]سيكون الجواب: أن هذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها إلا أن فيها فتناً ومخاوف..

وإن مثال المال: مثال البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلئ فمن ظفر بالبحر؛ فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص، وطريق الاحتراز عن المهلكات في البحر فقد ظفر بنعمة.. وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك.. فلذلك مدح الرسول ﷺ المال فقال: (**نعم العون على تقوى الله تعالى المال**).

– وأما تقبيح الأموال: فهو تقبيح لإمساكها والحرص عليها للتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها.. أما أخذها بقدر الكفاية فليس بمذموم...

وكذلك كرم العشيرة، وشرف الأهل من أجلّ النعم التي أنعمها الله علينا..؛ ولذلك كان ﷺ من أكرم الناس أصلاً في نسب آدم عليه السلام.. وقال عليه السّلام: (**تخيروا لنطقكم الأكفّاء**) (رواه ابن ماجه).

– ومن نعم الله تعالى علينا: النعم التوفيقية: وهي النعم الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد، مما يوفّق بين إدارة العبد وبين قضاء الله وقدره.. فأما نعمة الهداية: فهي التي لا سبيل إلى طلب السعادة إلا بها.. قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه 50]

إذ لا فائدة لإرادة الإنسان وقدرته إلا بعد الهداية... وللهداية منازل،

وأولها: معرفة طريق الخير والشر..

قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد 10] فقد أنعم الله علينا بالعقل، وهيأ لنا الأسباب وهي الكتب والرسل.. وبيّن لنا العوائق التي تعترض سبيل الهداية كالنفس وحب الشهوات وغيرها.. ثم ترك لنا الاختيار..

وثاني منازل الهداية: هي ثمرة المجاهدة، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[العنكبوت 69].

وأما المنزلة الثالثة: فهي النور الذي يقذفه الله في قلب عباده فيهتدي به إلى ما لا يهتدي إليه بالعقل.. قال تعالى:﴿ **قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى**﴾ [البقرة 120]..

ولما كانت ظاهرة النعمة على الإنسان والعناية الإلهية به من أكثر الظواهر تفصيلاً بالقرآن؛ لما يترتّب عليها من إظهار فضل الله ورحمته وعطائه؛ فإنها بالتالي تبقى دليلاً على الله تعالى ونعمه.. قال عز من قائل: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [إبراهيم34]

وقال تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[النحل 18].

وإن هاتين الآيتين ختمت الأولى منها بوصف الإنسان وأنه ظلوم كفار.. وختمت الثانية بـ: ﴿............... **إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.. ولهذا معانٍ:

1– أن هذه النعم التي لا تعد ليست مصادفة، بل هي من خلق الله... وعفو الله ورحمته هما اللذان يَسَعان الإنسان المؤمن أن يقوم بواجب الشكر قياماً كاملاً...

2ً- أن جهل الإنسان الذي ينتج عن الفكر، وكبره الذي ينتج عنه الظلم هو الذي يجعل الإنسان لا يرى بداهةً نعم الله.. ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص.. بل ينسبها إلى أيّ شي؛ مهما كان تافهاً وباطلاً.. قال تعالى: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [الزمر45]

3ً- وقد أجمل الله ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه في آيات منها: قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ [البقرة29]

وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان20]

وقال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**﴾ [الجاثية13]

ومن هذا يتبين لنا:

أن أول نعمة من مظاهر نعمة الله على الإنسان خلقته على ما هو عليه من معانٍ ظاهرة وباطنة.. وأن الأرض بما فيها مسخرات للإنسان وهي نعمة عظيمة لا تقدّر بثمن..

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان 20]

عن مقاتل ابن حيان: أنَّ الظاهرة هي الإسلام، وأما الباطنة فستره تعالى عليكم المعاصي.. وعن سفيان بن عينية: (ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرّفهم أن لا إله إلا الله).. وفي ذلك يقول ابن عطاء الله السكندري: "متى رزقك الطاعة، والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة..".

- ومن نعم الله تعالى على الإنسان: "نعمة التأييد والتسديد والعصمة.. قال تعالى: ﴿**إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ [المائدة110]: حيث وجّه تعالى حركات الإنسان صوب المطلوب والسداد وأعانه على ذلك بتقوية أمره بالبصيرة من الداخل، وتقوية البطش، ومساعدة الأسباب من الخارج، ثم جعل له في باطنه الوجود الإلهي مما يقوي الإنسان على تحري الخير وتجنُّب الشر كما في قوله تعالى: (**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**) [يوسف 24].

وعن ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى: "نعمتان ما خرج موجودٌ عنهما، ولا بد لكل مكوّن منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد".

ولقد أنعم الله تعالى علينا بالإيجاد أولاً.. وبالإمداد ثانياً، ومما ينبغي ألّا يتغافل عنه نعمة إيجاد الإيمان، ومحبة الطاعة في قلوبنا، وإمدادها وكراهة الكفر والمعصية؛ فإن ذلك من النعم العظيمة التي لا مدخل للعبد فيها، ولا وسيلة إليها إلا بفضل الله...

فإيجاد الإنسان ابتداءً، ونشأته من حيث لا يعلم بكل ما فيه من خصائص تُفَضِّلُهُ على غيره من المخلوقات، ثم إمداده بالقدرة على القيام لما هيأه الله له، وتوكيل كل عضو من أعضاء الجسم بعمله الخاص به.. كلُّ ذلك من أجل نعمة الله على العبد..

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين4].

- ثم إن الله تعالى أنعم على الإنسان بنعمه الكونية: فجعل الشمس ضياء والقمر نوراً، فكان منهما علم السنين والحساب.. وجعل النجوم السبيل الوحيد للإنسان لمعرفة الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر.. قال تعالى: ﴿**اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [ابراهيم32-34]..

ففي هذه الآيات الكريمة نرى إجمالاً لنعم الله الكونية كلها.. وكون الإنسان خليفة الله في الأرض.. إذ جعل الأرض بما فيها له..؛ فما من شيء في هذا الكون الواسع إلا ويستفيد الإنسان منه بشكلٍ أو بآخر، الآن أو غداً.. وعلى كلٍ فإن الإنسان كما يتمتّع باللقمة التي يأكلها، والثوب الذي يلبسه: يتمتع بالمنظر الجميل.. وكما يتمتع بالمنظر الجميل: يتمتع بلذة المعرفة.. ولئن لم تكن في بعض المخلوقات؛ إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته إيجاداً وإمداداً، إحياءً وإماتة...

ثم أليست عناصر هذا الكون من حديد ونحاس وأوكسجين وآزوت وهيدروجين وذهب كلها مسخرات للإنسان؟! بل كل ما في الأرض من عناصر دفينة، وما في السماء من أنوار مضيئة كله نعم من الله مسخرة للإنسان..؟ هذه كله دليل على أن هناك ذاتاً رتبت هذا الكون وأوجدت الإنسان.. ذلك الله رب العالمين.. ولكن الإنسان غارق بلذاته لاهياً عن واجباته تجاه خالقه سبحانه.. ناكراً النعمة التي

أحاطه الله بها وأولاه قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ13] وهكذا فإن أكثر الناس لا يعرفون قدر النعمة إلا بفقدانها، وإنما يعرف قدر الماء من بلي بالعطش في البادية، لا من كان على شاطئ الأنهار الجارية..

– ومن نعم الله العظمية أيضاً: أن أخفى على الإنسان بعض المعارف فجعله جاهلاً بها: كجهل الإنسان بالأجل، وبما يضمره الناس عليه، وبأمر القيامة، وإبهام ليلة القدر، وساعة الجمعة وغير ذلك.. فكل ذلك نعمة.

– وفي فضل النعمة على البلاء يقول مطروف بن عبد الله: "لئن أُعافى فأشكر أحب إليّ من أن ابتلى فأصبر" – وقال رسول الله ﷺ في دعائه: (**وعافيتك أحبُّ إليّ**).. فينبغي أن نسأل الله تعالى تمام النعمة في الدنيا.. ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر لنعمته؛ فهو تعالى القادر على أن يكرم خلقه جميعاً بالعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة...

وأما ما ورد مما يدل على أن البلاء في الدنيا من النعم فليس دليلاً على أن نسأل الله البلاء (كما يفعل بعض الجهال من الناس)؛ إنما يكون البلاء نعمة: إن كان ابتلاءً بالدنيا وليس بالدين.. ولأن ما يرجى من ذلك البلاء هو الثواب بعد الدعاء والصبر، فعن وهب بن منبه أنه قال: "ينزل البلاء ليستخرج الدعاء" – وعن حبيب بن عبد قال: "ما ابتلى الله عبداً ابتلاء إلا كان لله عليه فيه نعمة ألّا يكون ابتلاه بأشدّ منها".. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا عبيد إحسان، ولا يجعلنا عبيد امتحان؛ فنحن لا نعرف أنفسنا إن ابتُلينا هل سنجتاز هذا الابتلاء من الله تعالى بنجاح أم لا ؟!...

– ومن النعم التي يكرم الله عز وجل بها عباده ما ورد فيها قوله ﷺ: (**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**) (البخاري).

فهذه الدنيا التي نعيش فيها زمناً محدوداً وعمراً مقدراً هي مزرعة للحياة الثانية، والعمر قصير، وما مضى لا يعود ولا يرجع أبداً.. وهاتان النعمتان – وخصوصاً الفراغ – يغفل كثير من الناس عنها، ويجهلون قدرها ولا يقومون بحقّ شكرها، وقد نسوا بأنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون...

والمقصود (بالفراغ) هنا: الخلو عن المشاغل والمعوقات الدنيوية المانعة للمرء من حيث الاشتغال بالأمور الأخروية – وفي الحديث: (**اغتنم فراغك قبل شغلك**) لأن الفراغ لا يبقى فراغاً أبداً؛ فهو إما

أن يُملأ بخير أو بشر، والنفس إن لم نشغلها بالخير شغلتنا بالباطل، فتنقلب حينئذٍ نعمة الفراغ نقمة على صاحبها؛ ولذا علينا اغتنام هذا الوقت لأن الوقت هو الحياة، فمن جهل هذه النعمة ولم يغتنمها ندم من حيث لا ينفع الندم..

ولأن كل إنسان مسلم يعرف أن عليه واجبات أمام الله تعالى عليه أن يؤديها سواء قصر عمره أم طال..، شاكراً بذلك ربه أيضاً على نعمة الإسلام حيث أرسل رسول محمد ﷺ بالهدى ودين الحق؛ بينما كان الناس يتيهون في بيداء الكفر والضلال.. فلا حقٌ يقام ولا هديٌ يتّبع قال تعالى: (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**) [التوبة33]- وعن الحسن أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: "الحمد لله بالإسلام" فقال: (**إنك لتحمد الله علي نعمةٍ عظيمة**)...

فلقد جاء الإسلام نعمة كبيرة فأشرقت الدنيا بقدومه، وملأ القلوب الفارغة بالإيمان، وغمرها باليقين والإخلاص.. وهو الدعوة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان.. قال تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**﴾ [البقرة 138]

فالإسلام دين سماوي لم يقتصر على صلاح العقائد، وتنظيم العبادات فقط؛ بل نظر إلى كل ناحية من نواحي الحياة الفردية والاجتماعية.. فهو منحة ونعمة من الله عز وجل ليكون العلاج الناجع الحاسم لكل أدواء الحياة، وسيزال إلى يوم القيامة دعوة إصلاحية هاوية بنّاءة ليس لها نظير تملأ الفراغ وتحقق الهدى وتقيم العدالة، وتمنع البغي والفساد، وتعطي المرأة حقوقها التي سلبت، وتسمو بها إلى الكرامة والطهارة، وتنظم العلاقات بين الأفراد والجماعات.. وما من نعمة إلا ونعمة الإسلام ترجح عليها..؛ فهو يعالج أمور الحياة بحكمة صادرة عن الله العليم الخبير..، ويقوم على مبادئ ومثل وآداب، وليس فيه رجعية أو رهبانية أو جمود، بل هو ذاخر بالحياة لا يتخلف عن ركب التقدم والمدنيّة.. ولا ينضب معينه أبداً، وجدير بعباد الله الذين لم يلتزموا بهذا الإسلام وهديه أن يعودوا فإن الله تعالى كريم يقبل التوبة وهو الغفور الرحيم.. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر53] وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ [النساء110]

أيُّ نعمة، وأي منعم جواد يخبرنا عن نعمته وكرمه أن كل من تاب إليه تاب عليه من كل ذنب، فهو يغفر الذنوب جميعاً.. يده تعالى مبسوطة بالعفو والمغفرة، لا تنقبض في الليل ولا في النهار.. تنشد مذنباً أثقلته المعاصي ترجو التوبة والإنابة إلى الله..

فجديرٌ بالعباد المسرفين على أنفسهم، أن يعودوا إلى حظيرته القدسية فيسألونه بدموع الندم والخطايا، وجدير بالعبد المسلم السعي والمبادرة إلى التوبة، والإسراع بالفرار إليه، والبعد عن المعاصي.. عارفاً قيمة هذه النعمة التي منحها الله تعالى لعباده عرّفهم بها كيفية الرجوع إليه إن بعدوا عنه.. قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور31]

... فإذا تاب العبد وعاد إلى الله تعالى فأتمر بأوامره، وانتهى بنواهيه مخلصاً لله تعالى، أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإيمان وهي أيضاً من أعظم النعم التي يسبغها الله على عباده.. إنها سر السعادة للإنسان في داري الدنيا والآخرة.. لأن الإيمان الحقيقي: إنما هو طمأنينة في النفس، وعقيدة ترسخ في القلب، وتدفع إلى محبة الله وطاعته، وتقواه، وتحمل المؤمن على بذل النفس والمال في سبيل دينه، خالياً من شوائب النفاق والرياء، فهو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، بعد مجاهدة النفس وطاعة الله قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت69]

والإيمان يزيد وينقص وغذاؤه: العمل الصالح ودوام ذكر الله تعالى، وسؤال الله الثبات. قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾[النور40].

– ومن نعم الله تعالى علينا أيضاً: أن زودنا بكتابه الكريم، وأرسل الرسل الكرام فكانوا دليلنا إلى طريق الهداية.. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحديد9] فكان هذا الكتاب العظيم كالمحور الجاذب لجميع المسلمين، فهو النور المضيء والمرشد الأمين، وجعل الله الشيء الذي لا يهلك من اعتصم به ولا يضل من سار على هداه، وهو شفاء ورحمة، ووثيقة إصلاح للمجتمع، يصهر الأمم في بوتقة المحبة والإخاء والعقيدة الراسخة.. قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾ [الإسراء9] .. وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران101]

– وكذلك السنة الشريفة تأتي في المرتبة الثانية لكتاب الله تعالى، والتمسك بها لا يقل أهمية عن التمسك بكتاب الله تعالى، فهي إلى جانب القرآن أساس دين الله ومصدر شريعته الإسلامية.. قال تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الحشر7]– وقال عليه الصلاة والسلام: (**تركت منكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنة رسوله**) (الموطأ)..

– ومن أكبر نعم الله تعالى أيضاً أن جعل التفاوت بين الناس، ولم يجعلهم سواسية.. بل رفع بعضهم فوق بعض درجات، لأن الحياة الدنيا لا تقوم إلا على هذا.. فكونهم متفاوتين جعل كلاً مسخراً في حدود طاقاته إلى جزء من العمل الذي تقوم به مصالح الخلق في الحياة الدنيا.. وعلى كل إنسان أن يستعمل طاقاته في طريقها الصحيح لينجح فيما كلفه الله به..؛ فما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله لرأى نعماً كثيرة تخصُّه..

فلقد أنعم الله عز وجل على الإنسان بهذا العقل، يدبر له أعماله ويفرقه عن سائر البهائم.. فهو نور يقذف في القلب به يُستعان به لإدراك الأشياء؛ فهو الجوهر النفيس الذي يتمتع به الإنسان.. والعاقل من القوم من يحكِّم عقله فيما يشاهده فيرشده إلى المنهج السويّ، ويمضي به إلى خير الغايات قال تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [الحشر2] وكذلك لو تأملنا في عجائب نعم الله في اللقمة: فلو أخذنا اللقمة الواحدة من الخبز مثلاً: فإنها لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم كله قائماً على الوجه الأصوب: فلا بد للحنطة لكي تنبت من معونة الفصول الأربعة وهي: الأرض، الماء، الهواء، النار؛ وذلك حتى يمكن طبخ الخبز في ذلك الدقيق...

هذا كله فيما تقدّم على حصول هذه اللقمة،.. أما بالنظر فيما بعد حصولها: فلنتأمل كيف خلق الله هذه الأبدان حتى أمكنها الانتفاع بتلك اللقمة، ولا يمكننا أن نعرف هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح، وعلم الطب؛ لأن العقول قاصرة عن إدراك هذه المباحث لوحدها..

– ومن نعم الله علينا أن خلق لنا آلات الإحساس والحركة والإدراك:

فأما آلات الإدراك (أي الحواس الخمس) فهي: حاسة اللمس وحاسة الشم وحاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الكلام.. وكلُّ ذلك يُدرَك بحاسة مشتركة في الدماغ تتأتّى إليها المحسوسات الخمس وتجتمع فيها...

وهذا كله تشاركنا فيه الحيوانات غير أنَّ الله شرفنا بنعمة العقل كما ذكرنا؛ فبه ندرك مضرة الأشياء ومنفعتها في الحال والمآل...

– ولو تحدثنا قليلاً عن نعمة الله في حاسة البصر: لوجدنا العين آلة واحدة، وقد رُكِّب من عشر طبقات مختلفة، بعضها رطبات، وبعضها أغشية ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وشكل وصورة وهيئة وعرض وتدويرة؛ فلو اختلفت طبقة واحدة لاختلّ البصر؛ هذه حاسة واحدة فكيف بسائر البدن.. قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء36].. فبواسطة السمع والبصر والكلام يصعد الإنسان في الوعي والإدراك؛ فإن هذه الأذن ذات الحجم الصغير والخلايا المعقدة تستطيع بقدرة الله أن تميز ما بين (34 ألف) لحن مختلف في الشدة والتواتر.. ولولا نعمة النطق والكلام لما استطاع الإنسان أن يرقى في سلم المعرفة، ويتفاهم البشر، ويتفهم اللغات والشعوب.. وما من عجب في ذلك كله فالله قادر على كل شيء.. فهو تعالى بقدرته خلق الإرادة والقدرة وآلات الحركة، فإنه تعالى لو خلق لنا البصر حتى ندرك به الطعام، ولم يخلق لنا في الطبع شوق إليه وشهوة لتناوله؛ كان البصر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق الله لنا الشهوة، وسلطها علينا لنضطر إلى تناول الغذاء فيقوى به الجسم..

ثم إن هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام لهلكنا، فخلق لنا الكراهة عند الشبع لنترك الأكل..

– ولقد أنعم الله علينا بخلق اليدين وهما طويلتان ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في شتى الجهات، وتمتد وتنثني ولا تكون كالخشبة المنصوبة.. وجعل رأس اليد عريض بخلق الكف وجعل فيه الأصابع والأظافر؛ حتى يسهل تناول الأشياء الدقيقة مهما صعبت، فإن كانت لا تحويها الأصابع أُخِذت برؤوس الأظافر..

– ولنتصور أننا أخذنا الطعام باليدين، فمن أين يكفينا هذا ما لم يصل إلى المعدة؟.. ولذا قد جعل الله لنا منفذاً إلى المعدة وهو "الفم"..

ولو كان الفم قطعة واحدة لما تيسر ابتلاع الطعام ولا كيفية الكلام؛ فنحتاج إلى طاحونة تطحن الطعام، ولسان ينظم الكلام، فخلق لنا اللحيين (الفكين) من عظمين علوي وسفلي، وركَّب فيهما أسنان وقسمهما بحسب ما يحتاج إليه الطعام إلى قواطع وأنياب وطواحن، وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة

دورية، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك.. ثم أنعم علينا بوجود اللسان الذي يردُّ الطعام وسط الأسنان بحسب الحاجة.. هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق، وجعل تحت اللسان عيناً يفيض منهم اللعاب حتى يسهل عجن الطعام ليصل إلى المعدة؛ فهيأ الله له المرئ والحنجرة وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب فيهوي إلى المعدة...

وهكذا بعد هذه الرحلة الطويلة يصل الطعام إلى المعدة فتستقبله بالترحاب، وتغلق عليه الأبواب؛ فلا يزال لابثاً فيها حتى يتم الهضم و النضج بالحرارة، حيث خلق الله المعدة على هيئة القدر يقع فيه الطعام فيطبخ طبخاً تاماً وينضج بالحرارة التي تأتيه من جهة الكبد يميناً ومن جهة الطحال شمالاً، ومن قدّام الترائب، ومن خلف لحم الصُّلب حتى يصير مائعاً يصلح للنفوذ من تجاويف العروق ومنها إلى الكبد، حتى ينصبُّ الطعام فيها فينتهي إلى الكبد ثم يتفرع بالأعضاء..

وفي الإنسان عضلات وعروق لا تحصى أعدادها، مختلفة بالصغر والكبر والدّقة والغلط، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة ونعمة من الله سبحانه..؛ ولو سكن عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلك الإنسان..

– ثم إن الله عز وجل ربط قوام هذه الأعضاء كلها، وقوام منفعتها وإدراكاتها ببخار لطيف هو (الروح) ومستقره القلب، و يسري في جميع البدن بواسطة العروق، فيحدث في كل جزء من الأجزاء التي يصل إليها قوة، وحسن إدراك..

ومثال الروح والجسد: كالسراج إن انقطع زيته انطفأ؛ وهذا الوصف إنما هو للجسم اللطيف الذي وصفه الأطباء، لا للروح الأصلي..؛ لأن الروح في الأصل هي أمر رباني، والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها.. قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء85]

– كل هذه النعم دليل على نعمة كبرى وهي نعمة الصلة بين العبد والرب: فحبُّ الله تعالى لعبد من عباده نعمةً لا تُقَّدر بشكر.. وأمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف حقيقة المعطي الوهاب..

ثم من هو هذا العبد الذي يتفضّل الله سبحانه عليه بالحبّ؟! وهو من صنع يديه.. نعم! إنها نعمة لا يدركها إلا من ذاق حلاوة القرب من الله تعالى.. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ**

عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة54]

– وإن نعمة حب الله لعبده لا يمنحها إلا لمن فازوا بشرف مرضاة الله تعالى واتباع أوامره، والذين هم أشد حباً لله.. لأننا بقليل من التأمل نجد أن الله عز وجل أهل لكل حبّ، وأسرع دواعي المحبة وروداً على الذهن تلك النعم المفاضة من فضله وكرمه، والتي تتدفق علينا دون حساب..قال تعالى: **﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾** [النحل53]

وإن كنّا نحب أحداً لعِظم قدره، وحسن تدبيره فالجدير بنا أن نحب من وهبنا حبّه وهو أحكم الحاكمين ومدبر الخلق أجمعين..

بل إن كنّا نحب أحداً لما منحنا من عطاء، فالجدير بنا أ، نحب من منحنا نعمة الحبّ الذي زرعه في قلوبنا؛ حبنا لسيدنا محمد ﷺ الذي جعل الله دينه وأتباعه ومحبته نعمةً ألّف بها القلوب وأنقذنا بها من النار.. قال تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** [آل عمران103] وهكذا يأمر الله سبحانه عباده المؤمنين بتذكّر هذه النعمة على مر الزمان ليقوموا بشكرها، وما شكرها إلا المحبة والاتّباع..

فما محبته ﷺ في الحقيقة إلا شعبة من محبة الله عز وجل، ولا يمكن الفصل بينهما، فمن أحبّ الله فلا بد من محبة رسول الله ﷺ..

– قال رسول الله ﷺ: (**أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبّي**).. وهي رأس مال المؤمن، وحظه من الإيمان، وذخيرته لدنياه وآخرته؛ فمن لمن يتذوّق حلاوة هذه المحبة فهو "ولا شك" ناقص الإيمان..

– ولعل قائل يقول: كلنا نحب الله ورسوله؟!.. فالجواب: ليست المحبة قولاً بلا عمل وادّعاء من غير دليل، وإذا كانت المحبة في القلب فيجب أن تظهر على الجوارح وفي الأعمال.. وإلّا فكيف تتقي الإله يا من تزعم حبه؟! إن زعمك باطل..

فو كنت صادقاً في حبه لأطعته أما علمت أن المحبّ لمن يحب يطيع؟.. فبالتقوى الحقيقة تكون المحبة الصادقة لله ورسوله.. أما في هذا الزمن العقيم: فقد فقرت القلوب، من أيّ معنى حقيقي للحبّ المحمديّ، وقطع كثير من المسلمين صلتهم برسول الله ﷺ، واتبعوا أهواءهم..، تراهم يحفظوا من سيرة أفلاطون وغيره بينما هم أجهل ما يكونون بالسيرة النبوية..

فعلينا نحن المسلمون أن نعتني بهذه النعمة التي منحها الله لنا بمحبة نبينا محمد ﷺ محبة صادقة، وأن نكون دائماً معتصمين بحبل الله تعالى جميعاً.. قال تعالى:﴿ **وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [آل عمران103] .

وعلينا أيضاً أن نحافظ على النعم التي أنعمها الله علينا بأن نكون متعاونين متضامنين متماسكين.. فالله سبحانه يأمرنا بصريح العبارة بالجماعة، وينهانا عن التفرقة، ويكشف لنا طبيعة التضامن الوثيق الذي يجب أن نتصف به.. فلقد اتفق حكماء البشر على أن المحبة أعظم الروابط بين البشر، وأقوى أسباب السعادة الإنسانية..

وقد روى الحاكم: أن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتُكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال63] أي لولا نعمة الله عليهم بجماعتهم وألفتهم بالإيمان التي هي أقوى عاطفة ومودّة من الأُخوّة وقرابة الأنساب والأوطان، لما أمكنك يا محمد أن تؤلف بين قلوبهم..

ولكي ينعم المجتمع الإسلامي والمسلمون كافّة بهذا الحب الخالص والودّ والصفاء والتعاون والإيثار: عليهم بإفشاء السلام بينهم كما أمرهم رسول الله ﷺ، وأن يلتزموا بالجماعة هي بركة ومحبة ووفاء وإخاء وإلفة..

وكذا من أنواع الحبّ التي أكرمنا الله به: نعمة حب الأبناء للآباء: حيث أن لهذا الحب مناشئ من غرائز النفس وشعورها وعواطفها وطباعها، ومن عرف الأقوام وآدابهم الاجتماعية حيث أن الولد بضعة من أبيه، يرث بعض صفاته وطباعه من جسده ونفسيته وعقله.. وأول شيء يشعر به وينمو في نفسه بنماء تمييزه وعقله إحسان والديه إليه..، واقتران صورتهما في خياله.. ويتلو هذا شعوره بما هو عليه من حنان وعطف وحب خالص لا يشوبه رياء ولا تهمة، فيتولّد منه الشعور بالإعجاب والعَظَمة؛ حيث

يشعر الطفل بأن أباه أعظم الناس، وهذا الشعور الصافي إما أن يزداد في الكبر.. وإما يضعف، ولكن قلّما يزول عيناً وأثراً..

ويؤيد هذه الأنواع من المشاعر والغرائز ملكات تطبقها الحقوق العرفية والآداب الاجتماعية، والشرائع الدينية، فالله تعالى قد قرن الإحسان بالوالدين بتوحيده وعبادته فقال: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾ [الإسراء23]

- وقرن شكره بشكرهما فقال: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ [لقمان14]

- وأمر بالمعروف لهما وإن كانا مشركَين مع نهيه عن طاعتهما إذا دعواه إلى الشرك، قال تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [لقمان15]

- ومما يجب ألّا ننساه أيضاً أن هناك نعمة تسبق نعمة الأبناء وحبّهما وهي نعمة الأزواج، قال تعالى:

حيث يذكرنا الله تعالى بنعمته على عبيده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودّة والرحمة، ولكن من رحمته تعالى خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواج للذكور، ثم جعل من الأزواج البنين والحفدة.. وقد روي عن النبي ﷺ فيما يرويه عن يوم القيامة بتذكير الله لعبده نِعمَهُ: (**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع**)... وهكذا يكون الله تعالى قد منّ علينا بنعمة الزواج ثم بنعمة الأبناء؛ وخاصة إن ساروا على الإيمان.. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور21]..؛ حيث يخبرنا الله عز وجل أنّ من فضله ونعمه على خلقه ولطفه بهم أن المؤمنين إذا تبعتهم ذريتهم في الإيمان ألحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم لتقرّ أعين الآباء بهم عندهم في منازلهم حيث يجمع بينهم على أحسن الوجوه..

– وفي الحديث عن النبي ﷺ: (**إذا دخل الرجل الجنّة فيسأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به..**) ، فهذا كله من فضل الله ونعمته على الأبناء ببركة عمل الآباء...

– أما فضل الله على الآباء ببركة عمل الأبناء ودعائهم: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الله ليرفع درجة العبد الصالح في الجنَّة فيقول: يا ربي أنّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**)..

– ولا شكّ أنّ من نعم الله تعالى التي أكرمنا بها: نعمة شكره وشكر الوالدين والإحسان إليهما؛ فالإحسان إلى عباد الله واجب محتّم قد كتبه الله على كل شيء، وهو إلى الوالدين أحب وآكد، وشكرهما يكون بالإحسان إليهما، والعطف عليهما، واحترامهما، وإطاعة قولهما؛ مالم يأمر بظلمٍ أو إثم أو قطيعة رحم، وأن نخفض لهما جناح الذُلِّ من الرحمة ولا ننساهما من الدعاء أبداً في الحياة وبعد الممات.. قال تعالى: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً**﴾ [نوح28] فالاستغفار والدعاء لهما مقبول عند الله عز وجل لأنه شكر على معروف، وإسداء لفضل ووفاء لدين.. وهو فرع من شكر الله وحمده على نعمه وآلائه..

– ولقد فرّق العلماء بين الحمد والشكر فقالوا: إن الحمد من أشكال التسبيح والتهليل فيكون من المساعي الظاهرة، والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعي الباطنة؛ لأن الشكر يقابل الكفر، والحمد يقابل اللؤم، ولأن الحمد أعمد وأكثر، والشكر أخصّ وأقل.. قال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ13]

وقال الحسن: "ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فقال: الحمد لله؛ إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ"..

– وشكر النعمة للمنعم يكون بثلاث:

أولاً: بمعرفتها والاعتراف بأنه هو مسديها والمنعم بها..

– ثانياً: الحمد لله والثناء عليه بها..

– ثالثاً: بالتصرف بها فيما يحبه ويرضيه؛ وهو ما أسداها لأجله من حكمة ورحمة..

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة 152] فمن الآداب الإلهية والتعاليم الإسلامية: التحدث عن نعم الله والشكر على ما أناء من هبات وأعطيات، وأسبغ من عافية في الدين والدنيا.. إلخ النعم الإلهية التي لا تعد ولا تحصى..

ومن الخيانة والظلم والجحود والكفران نكران فضله تعالى، ونسيان نعمه أو تناسيها والاستخفاف بها..، بالإضافة إلى أن كفران النعمة يوجب زوالها، ودوام النعم منوط بشكرها لله تعالى،

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم7]

فالله تعالى يعلن لعباده مضاعفة النعم وزيادتها إذا هم أدوا شكرها وحقها، واعترفوا بفضل الله وكرمه دون مباهاةٍ ولا رياء.. قال رسول الله ﷺ: (**أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء**) فالشكر نعمة توجب الاعتراف بالتقصير، ولقد أمر الله تعالى الإنسان بالشكر فقال:﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان14]

– قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يقوم حتى تتورّم قدماه، فقلت له: لِمَ تضع هذا يا رسول الله ﷺ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (**أفلا أكون عبداً شكوراً**)؟!..

– ولكن أكثر الناس في غفلة وجهل عن هذا، طغت عليهم المادة؛ فانصرفوا عن شكر خالقهم ورازقهم.. وقابلوا نعم الله بالجحود والكفران قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس17]

– ويقول ابن عطاء السكندري: "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها".. ذلك وأنه قد دأب كثير من الناس على أن يعرِّفوا شكر الله تعالى بالكلمة المعروفة التي يرددها أحدنا على لسانه في المناسبات: نشكر الله، نحمد الله، ...

فمن اعتاد أن يكون جوابه عند السؤال عن حاله: الحمد لله؛ فهو عند الله يعد حامداً شاكراً.. وهذا يعني أنّ جلّ الناس أو كلهم شاكرون لله، حامدون له.. غير أن هذا يتعارض مع قول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ13]؛ إذن فالشكر الذي يعنيه بيان الله تعالى ويأمر به؛ له معنى آخر لا ينطبق على هذه الكلمة التقليدية التي ترددها ألسنة الناس وحتى الفاسقين منهم (ربما بدون إدراك لمعناها).

– أما معنى الشكر الذي يعينه بينان الله تعالى ويأمر به: هو أن يصرف العبد جميع ما قد أنعم الله به عليه، لما قد خُلق من أجله؛ فالشكر إذن هو سلوك وتصرف.. وكلمة نشكر الله أو الشكر لله تنويه بهذا السلوك وعهد مع الله بتنفيذ مقتضاه؛ فإما أن يطابق سلوكه القول فذاك.. أو يخالفه، فهو إذن كاذب كافر بنعم الله تعالى..

وليس المراد بالكفر الذي يقابل الشكر في قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ [إبراهيم7]

الكفر الذي يناقض الإيمان، وإنما المراد به الكفر الجزئي المتمثل في كفر النعمة وعدم الاعتراف بها، وذلك بتسخيرها لنقيض ما أمر الله به من المحرمات والمحظورات..

وإذا ابتلي الإنسان بالإعراض عن شكر المنعم على نعمه، ودام على ذلك، ثم بقي مع ذلك ممتعاً بها، فليس ذلك إلا لأن الله مقته، فمدّه بالمزيد منها استدراجاً، ليدخر له على كفرانه العقاب الوبيل، وكذلك من تلقى النعم عند إقبالها إليه على أنها ثمرة لجهوده، ونتائج لوسائطه ناسياً خالق الأسباب والمسببات، ثم تعامل معها طبقاً لأهوائه، ذاهلاً عن المحسن الذي تفضل بهذه النعم عليه، ناسياً أوامره ووصاياه؛ فإن بوسعه أن يعلم أنّ استمرار هذه النعم في حياته مع بقائه على تلك الأحوال إلا استدراجاً من الله له؛ وإنّ هذا الاستدراج هو تكثيف لعوامل نسيان الله عز وجل، وإسدال لمزيد من الحجب الصّادّة عن معرفة الله والتأثر بأوامره وتهديداته.. قال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف 146] فأما من انزلق في طريق التيه والضلال بعامل ضعف الغريزة عندما كثرت النعم، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه ليصدّها عن اختراق حدود الله؛ فالشأن فيه: أن يربيه الله تعالى بسلاسل الابتلاءات، وكأن نداء الله تعالى يتوجّه إليه قائلاً: إن لطائف إحساني لم تقبل بك إليّ، لقد زادتك بعداً عني، وشروداً عن صراتي، إذن فمن الخير لك أن أحجب عنك بعض هذه النعم، وأن أوقظك عن غفلته بها ببعض المصائب والآلام، فإن الذي لا تقوده إلى الله لطائف إحسانه ستقوده إليه سلاسل امتحاناته.. ولا شك حينئذ أن هذه الابتلاءات من أجلّ النعم الباطنة كما يقول ابن عطاء الله السكندري في حكمه..

– وأما من قابل نعم الله بالشكر عليها، فقد رزق نعمة الشكر على نعم الله تعالى، وقد أودع هذه النعم في الحصن الذي جعل الله منه ضمانة لبقائها وزيادتها أيضاً..

ولا شك أن الإنسان الذي عرف ربه دون أن يعاني من شذوذ في حالته النفسية، أو كبرياء أعماه عن رؤية الحقيقة: لا بد أن تقوده النعم إلى شكر المنعم.. تلك هي الطبيعة التي نُظِر الإنسان عليها.. وصدق من قال: "جُلبت النفوس على حب من أحسن إليها"..

وفي ذلك يقول محمد الورّاق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً ... عليّ له وفي مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسَّراء عم سرورها ... وإن مسَّت الضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منّةٌ ... تضيق بها الأوهاد والبر والبحر

والحمد لله رب العالمين

المراجع:

إحياء علوم الدين للغزالي.
الحب بين العبد وربه لأحمد نصيب المحاميد.
شرح الحكم العطائية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
الشكر لأبي بكر محمد بن أبي الدنيا القرشي.
الوقت في حياة المسلم للقرضاوي.
تكريم الخالق للإنسان لمحمد سعيد غيبة.
الأسلوب الحكيم لسيد أحمد الهاشمي.
الإسلام والمرأة لسعيد الأفغاني.
منهاج العابدين للغزالي.